

الحياة والموت

تقرأ فيما بعد قصيدة عصماء ألفت أبياتها لا من الكلمات والجمال، ولكن من عناصر الحياة تنطق عن حكمة السنين الطوال، وتجارب الدنيا المريرة. هي في الشعر منهل سهل، وفي الحياة وصف صادق، وفي العظة حكمة بالغة. وكفى أنها مما أوحى به قريحة شاعر العراق الكبير السيد جميل صدق الزهاوي وقد أودعها من وصف الدنيا، ومن الحياة والموت، وهما أجدر الحقائق الدنيوية بالذكى، متوحى حياة مليئة بالتجارب والمعظات

- ١ -

كل ما تبتغيه منا الحياة هو ان لاتصيبها النكبات
وهي ان نأبها الأذى قتادى لم يظل للايلاف منها الشكة
حسبها ان تكون بين تضاعيف أذاها في ساعة لذات
انها وحدها السعادة الا أنها ملها طويلا ثبات
انما في الحياة جمع لما شئت وفي الموت للجميع شتات
غير ان الحياة ليست سواء فهي اما نعم واما اذاة
ولها ان راقبتها من قريب حسرات ومثلها سيئات
حبذا لو كانت لصاحبها قد غلبت سيئاتها الحسنات
أنا راض عنها وان تك قد حا قت أخيراً منهاجى الويلات

- ٢ -

طب بعيش به الحياة تجود انها ان تصرمت لاتعود
إغتنمها فانت بعد قليل جنة تحتوى عليها اللحد
حبذا أحلام الحياة حسناً والامانى جنة والوعود
انما في الهواء طلقاً لمن يحيا وفي نور الشمس عيش رغيد
والذى يجمع العنادل تشنو ويرى ازهار الربيع ضعيد

انت في مخصب من العيش ترى قل فإذا من بعد هذا تريد
كل ما يبسط الحياة صديق لك اما ما غمها فالودود
ولقد لا تسر شيخاً حياة هو منها ذاك القريب البعيد
وإذا ما ملئت ارضاً ومنها سرت تبغى أخرى فانت ارشيد
كل شيء اذا نزلت بلاداً لم تطأها قبلا فغض جديد
لا تقل للجمال في الارض حد ليس في الارض للجمال حدود

— ٣ —

أبصر الدوخ انه فينان وانظر الزهر انه فتان
وارمق المورقات خضراً جلاهن من الليل عارض هتان
واسمع الورق فوق افنانها المله تغنى كأنهن قيان
ليس ما تبصر العيون بأبقى روعة مما تسمع الآذان
وكان الرعد الملمع ليلاً هو ضحك الطبيعة الرنان
وكان البرق الملائى فيه هو للحسن باسم عنوان
وكان النجوم حين تراها أوثو في السماء أو مرجان
وكان الصباح ساءة يبدو مسفراً خود جسمها عريان
وكان الشمس المضيئة تنو ر تلظى في جوفه النيران
كان الاشياء بعد جفاء، قد أرادت ان يسعد الانسان

— ٤ —

عترت نفسى هزة الافراح حينما بان لى بياض الصباح
ولقد كان قبله الليل يدجو قابضاً للقلوب والارواح
وتلوح النخيل فى عدوة دجلة للناظرين كالأشباح
وعليها الحمام يهتف شجواً ولعل اهتاف صنو النواح
حبذا الصبح ماسحاً لظلام الليل عن حر وجهه الوضاح
وكان الصباح غدراء فكت عن نصيح قد بض زر الوشاح
ثم مرت بالروض تنصت فيه لأغاريد البلبيل الصداح

بسمت للاقاح بعد سلام واحتفت بالجورى بعد الاقاح
أخذت قبضة من النور فيا ضاً والقت به على الادواح

— ٥ —

ما زمان الشباب الا ربيع فيه نور يزهر ونبت يضوع
طلعت للسرور فيه نجوم ثم خابت عنى فعز الطلوع
وكان الشباب للجدل الدا ثم واللهم والهوى ينبوع
لم يزل بي إلى الشباب وأيا م له قد ذهب عنه نزوع
حبذا لو يكون لى بعد أن ولى شبابى يوما اليه رجوع
ما أحب الحياة عندي وان كا فت بأحشائي اليوم منها صدوع
انها لا تزال مالكة تا مرني أن أطيعها فأطيع
هى أفراح مرة وهموم وابتسامات تارة ودموع
لم يحجب الى عيشى الا أمل غامض الحدود وسيع

— ٦ —

كل ما حف بالحياة جميل غير أن البقاء فيها قليل
شجر باسق تغنى طيور فوق أفنانه وظل ظليل
وتلى مقرب من الدوح يجرى فى جدول سكب ماؤه سلسبيل
وبساط نسيجه الزهر قد جرت عليه من الرياح ذيول
تطلع الشمس فى الصباح فتعالو فى سماء زرقاء ثم تميل
فاذا ما علت يسر غدو واذا ما مالت يطيب الاصيل
نحن لولا الحياة كنا جماداً ماله إحساس ولا معقول
ولعل الجمال فى النفس منا وبها للخفاء عنه ذهول
وكان الاشياء قد خلقت لى غير أنى عنها بها مشغول

— ٧ —

يا حيائى أنت الحقيقة عندي فيك حتى أموت نحس وسعدى
أيها الليل إننى من مكانى لسلامى إلى نجومك أهدي

أيها البدر كنت تطلع قبلي
أيها البرق في السحاب تألق
أيها الصبح أنت أجمل شيء
أيها اليوم موسم أنت نغم
أيها الشعر أنت أشجى غناء
ليس شعر يقوله شعراء
إنما الشعر ما إذا انشدوه
أو أثار الشعور في سامعيه
ولقد غاب القوم في سربهم إذ

— ٨ —

سبقت لي سعادة وشتاء
ولقد هونت على النفس مني
خير أنى وهنت في كبرى عن
ثم أنى ما زلت صبا بها
اننى لم أزل أشاء بقائى
ذهب الصيف والربيع سريه
ونجت للشتاء نارى إذا لا
وسألتى منيتى عن قريب
مالنفسى تخشى لقاء المنايا
الأنى إذا هلكت عدانى
وإذا الأرض في غد بلعتنى
أبعدوا عنى كل شيء فانى

في حياتى وضنكة وبكاء
قبل هذا ضراءها السراء
حمل ما كلفتني الأعباء
يفلبنى يأس تارة ورجاء
غير أن الأيام ليست تشاء
بين وجاء الخريف ثم الشتاء
برد قريس وليلى ليلاء
اننى من لقاءها مستاء
ولما إذا يروع هذا اللقاء
كل ما قد أحبت الحوباء؟
لا ترانى ولا أراها السماء
إن أمت لا تفيدنى الأشياء

— ٩ —

أيها الموت إنما أنت آتى
أيها الموت أنت من بعد حين
أنت يوماً مجردى من حياتى
مخرجى من نور إلى الظلمات

أيها الموت فيك بعد قليل
ما حيأتني إلا كساسة أنت سد
وسياتني يوم سأحرم فيه
وسيدلي في جوف قبري جسمي
أنا من بعد ما سأهبط قبري
أيها الموت أنت حزن لا صبح
أنت للبعض من أجل الرزايا
كم بطفل فجعت أمارؤوما
كم تخرومت بين زمر ورقص

— ١٠ —

عبثاً قد حاولت أن لا أموتا
عبثاً قد جمعت خوف ضياع
بعد ثلاث المسومات عراباً
ينكر العقل أن تدوم حياة
وهو بعد اختباره موشك أن
قد بدت لي حقائق غير اني
حان لي أن أردى فتحمل نفسي
حينما التفت اشاهد امامي
وأرى النار في يد تناظلي

— ١١ —

أيها الموت انما أنت تاسي
أيها الموت ما نخطبك إن حا
تغري الناس إن مررت عليهم
طالما قد أقيمت في زدهة الدا
وتقلب الذين عاشوا بنعم
أيها الموت رافة بالناس
ق مرد ولا لجرحك آسي
وقفة في القلوب والأنفاس
ر المناحات موضع الاعراس
من قصور شهم إلى الارماس

وكأني اذا هلكت جماد
بي لآتمشي بعد ذلك رجلى
ما لما قد بنيت من صروح
للأمانى نعمة من أساس

— ١٢ —

أنت ياموت بالجميع تحقيق
أنت تستهوى كل فرد فيغنى
وب حر اذا تجـاهر بالـ
أيها الموت استبقنى للقوافي
ليس بي نازعا الى الهلك يوماً
لست أدري إذا اتبعتك في
أى حزن به يحسن ويرح

ما نجا حتى اليوم منك رفيق
واذا ما أغنى فلا يستفيق
يحق يقولون كافر زنديق
أنا ياموت بالبقاء خليف
نسب لي في الهالكين عريق
يرى الى أين بي سيفضى الطريق
عند ما يدفن الصديق الصديق

— ١٣ —

أنت كاللص قاحم للقصور
تنزع المثرى السعيد من الأصـ
تاركا خلفه يتامى صفاراً
ومن القصر تنقل السيد الضـ
أنت ذئب الأكوخ تخطف أطفـ
نازعا للصغير من عضد الـ
فرويداً ياموت انك قد
تتهزى على الجماجم تدمى
مالما قد قضيته من مرد

هاتك في جرأة للمستور
حباب والمال والفراش الوثير
ونساء يلدن بيض الصدور
مخم الى جوف مظلم من حفير
ل ذويها من حضنهم والحجور
أم وللأم من بنان الصفير
أسرفت في القتل ثم في التدمير
ساخرا من كرامة الجمهور
مالما قد خططت من تغيير

— ١٤ —

أنت داء وليس كالادواء
أنت وحش مازال في كل يوم
أنت أقوى ناب بشدق الرزايا

أنت رزء وليس كالارزاء
والغاً من شراسة في الدماء
أنت أمضي سيف بأيدي القضاة

أنت ذو سلطان على كل نفس
 أنت في الحكم مستبد فلا تنه
 أنت في السهل والجبال من الارض
 أنت لا تخفى عن عيونك فرد
 أنت باب ينفض بمن ولجوا فيه
 أنت إلى اللانهاية السوداء
 أنت في الارض حاكم والسماء
 زل يوما فيه الى الآراء
 ض وفي الماء كامن وانفواء
 في الدجي أنت مبصر والضياء
 من الناس ومبدأ للخفاء
 منتهى للظهور في مسرح الكو

- ١٥ -

نكصت عن لقاءك الاقوام
 أنت جلاد الناس تسرف في الة
 كلنا في أمواج بحرك نفني
 يملك الشيخ الهم والرجل الكا
 لك في محقنا تمد الليالي
 واذا ما انتجعت جسما سليما
 واذا كنت نازلا بمكان
 ان داء به تموت الصعالي
 فاذا أنت الواثب الهجام
 تل وأنت المفاجيء الهدام
 ثم لا يفنى بحرك القهقمام
 هل والطفل راضعا والغلام
 والايالي تمدّها الايام
 كثرت من روادك الاسقام
 فهو موبوء ليس فيه سلام
 لك كداء به يموت الهمام

- ١٦ -

تبلغ النفس يوم أودى مداها
 واذا ما أوديت كانت حياتي
 انها من حقيقتي كل شيء
 في حياتي ذاتي وأما المنايا
 هويت نفسي أن أعيش وان لم
 واذا ما نفس أقامت برمس
 اذا ما باننت عن الجسم نفس
 ويح نفهي فانها سيهلاقي
 لاسماء ولا نجوم أراها
 قد آتى من أيتها منتهياها
 كيف صبرى عنها ومالي سواها
 فهي فقداتها فلا أرضاها
 تلك في يوم حرة في هواها
 فتد اسود ليلا وضحاها
 يتساوى ضالها وهداها
 بغية جنيها ، فما أشتاها

- ١٧ -

لا أرى عوض الشمس بد بواري تتجلى في صبح كل نهار
 لا أرى ما يزين جوف الليالي من نجوم زهر ومن أقمار
 لا أرى الزهر باسمًا في رياض طامها قبل الصبح صوب القطار
 من عرار وزنبق واقاح وشقيق ونرجس وبهار
 لأشم الأريج تحمله الار واح قد مست جانب الازهار
 ثم لا أسمع الاغاريد تلقىها من الدوح جوقة الاطيار
 وحفيف الاشجار قد مرت الر يح بها في العشى والابكار
 وخير المياه في النهر تجري وعلى وجهها ترف القمارى
 لاسماع ، لارؤية ، لاشميم ، لامذاق ، لالمس ماني جوارى
 أنا بعد الردى لفقدان حسي حجير جامد من الاحجار
 تتوالى حوادث الدهر فوقى ثم أنى في حفرتى غير دارى
 وستبقى آثار فكري بعدى ثم تفنى كغيرها آثارى

- ١٨ -

إن أفارق حسي فماذا اعتياضى عن شعورى وذكريات الماضى
 كلما عادت فؤادى ذكرى ماضى لى انتفضت أى انتفاض
 وعن الآمال التى لى تبدو كنجوم من نورها فى بياض
 يوم كان الشباب غضًا فأمشى مرحا فى ثوب له فضفاض
 فسلام على الشباب الذى قد بان عنى وعنده الفياض
 شفق البلبل المتيم لما أبصر الورد دائم الاغراض
 وإذا البلبل المبهان تولى فسلام على عروس الرياض
 أنرانى أعنو لحكم المنايا ان أرادت أخذى بغير اعتراض
 أنا بالموت إن تيقنت كونى بعده واجداً حياتى راضى
 غير أنى أشك فليتأن - الدهر فى بته لما هو ماضى
 أنا بالشجر بعد أن هد صرف الدهر صرحى أبكى على الانتهاض

الأنيا لها سهام وأنى غرض واحد من الأغراض

— ١٩ —

بعد موت هذه الاجساد ليس يبقى منهم غير جهاد
أيها الموت انت فى كل حين واقف للحياة بالمرصاد
هى تبنى وأنت توسع هدماً انها فى واد وأنت بوادى
أيها الموت لأبناك لا أأز ت خنى عنى ولا أنت بادية
قد من الناس من تشاء تجده لك رخو العنان سهل القياد
رب ناس ماتوا جميعاً وناس ذهبوا فى أرض الهلاك بداد
وقبور بنين فوق قبور وبلاذ أقمن فوق بلاد
أزف الوقت أن أصير الى ما صار قبلا أمى ، أبى ، أجدادى
وأخال الزمان ذا دوران فتعود الآزال فى الآباد
ويعود الانسان يوماً كما نت جماعاته مع الافراد
اننى لم أخاذ الى غير حق فلماذا قد غاظهم اخلادى ؟

— ٢٠ —

أيها الناس إن أردتم خلوداً فقتلوا الموت وادفنوه بعيداً
واجعلوا فى يديه غلا ثقيلاً وبرجليه مثل ذاك قيوداً
واسكبوا فوقه نحاساً مذاباً ورصاصاً وجلداً وحديداً
وابتنوا حوله من الصخر سورا واجعلوا السور عالياً ممدوداً
ارفعوه الى السماء وردو ه الى الأرض ثم كروا صعوداً
وارصدوه من البعيد نهارة وارصدوه ليلاً وكونوا شهوداً
فعسى أن يبقى بذلك عما كن يأتيه من أذى مصدوداً

— ٢١ —

بين ما قلت والحقيقة بعد مالحى من المنية بد
انها فى يوم تجيء فان جا ت فما ان لها يكون مرد
انها ثامة الحياة التى قد وسعت وهى ثامة لاتسد

ولعلی اذا رقدت بقبری بعد موتی یطیب لی فیہ رقد
 اننی ان رقدت فیہ فلا یر عجنی کالاحیاء حر وبرد
 ولعل الحیاء ضرب من الفم ل خفی والموت للفعل رد
 أو هی الکهرباء حشوا الخلالیا وهو للکهرباء منهن فقد
 لم تزل هذه الطبیعة تبني ولما كانت قد بنته تهد

— ٢٢ —

ان بین الحیاء والموت حربا هو یبغی سحقا لها وهي تأبی
 ولقد یجمع الجرائم أجنا دا لها صولة فتزحف إلّا
 وتذود الحیاء عنها بجمع من کریاتها وجند معی
 ویكون الصدام بین القرية بین عنیفاً وتلهب النار لها
 تلك حرب بین الخلالیا واعداء الخلالیا تجدد طعنا وضربا
 وهناك القتلى تمزق اشلاء وتلك الاشلاء تؤخذ منها
 ولقد تمحز الحیاء ظهوراً بعد لائی وقد تهادن غضبی
 واذا الموت بعد ذلك ألفی خوراً فی الحیاء یمجم وثبا
 وتظلل الحیاء تدراً عنها — الشر حتی تعیا فتقضى نجبا
 ربما كان الموت أجدی لناس ركبوا مرکبا من الذل صعبا
 أی خیر من الحیاء لعان کل یوم فیها یعالج کربا؟
 بغداد فی ٢٠ مارث سنة ١٩٢٨

جمیل صدقی الزرقاوی